المحاضرة الرابعة: تصورات لسانية اجتماعية2

4 شارل فيرقسون والإزدواجية اللغوية: لقد استخدم اللساني الأمريكي شارل فيرقسون (Charles Fergusson) مصطلح (Diglossie) لأوّل مرة في دراسة له، تتمثل في مقارنة لظاهرة الازدواجية اللّغوية في اللّغات التالية: العربية، اليونانية الحديثة، السويسرية الألمانية، ولغة المستعمرات الهجينة في هايتي (بأمريكا اللاتينية) ونُشرت هذه الدّراسة (سنة 1959) في مقال مميز عنوانه ازدواجية اللغة (Diglossia). وقد كان غرض فرقسون من دراسته هو الكشف عن الصّراع اللّغوي الذي يسود المجتمعات التي تتّسم بالتعدّدية، فحاول أن يحدد مفهوم الازدواجية اللغوية انطلاقا من التّوزيع الوظيفي للّغتين اللّتين تشكّلان الازدواجية اللّغوية، فأقرّ بأنّ إحدى هذه اللّغات **رفيعة** وهي اللّغة الفصحى، والأخرى **وضيعة** وهي العامية (كما هو الشأن في اللّغة العربية مثلا). وتوصل فرقسون إلى استخلاص النتائج التالية:

* اللّغة الرّفيعة تتّسم بالنّفوذ، وهي لغة التّعليم والمعاملات الرسّمية والطّقوس الدّينية، ولغة الآداب المكتوبة والتي تعود إلى حقبة زمنية بعيدة؛

* اللّغة الوضيعة هي لغة التداول اليومي ممّا يكسبها سمة (اللّغة الوضيعة) وهي لغة الأحاديث الح,يمية، والآداب الشفوية الشعبية؛

* تستمر حياة اللّغة الرّفيعة إلى جانب اللّغة الوضيعة لعدة قرون، وتنتمي هاتان اللّغتان إلى نفس السّلالة اللّغوية؛

* البنية النّحوية للّغة الرّفيعة أكثر تعقيدا منه بكثير في اللّغة الوضيعة، أمّا من النّاحية الصّوتية والمعجمية فبينهما تطابق متعدّد.

5 . بازل برنشتاين واللامساواة اللغوية في المدرسة: وفي الفترة ذاتها اشتغل البريطاني ب. برنشتاين (B. Bernstein) (1924 – 2000) [وهو متخصّص في علم اجتماع التربية] على المعوّقات اللغوية مهتمّا بالإنتاجات اللغوية الفعلية وربطها بالوضع الاجتماعي للنّاطقين، فقد تحدث عن شفرتين لغويتين

اجتماعيتين متقابلتين: لغة ضيقة ومفككة وضعيفة عند أبناء الفقراء، ولغة غنية وموسعة عند أبناء الأغنياء، حيث توصّل إلى وجود علاقة مباشرة بين الإنتاجات اللغوية الواقعية وبين الوضعية الاجتماعية للمتكلمين. وقد توصّل إلى أنّ نسبة الفشل الدراسي لدى أطفال الطبقات العاملة تفوق كثيرا أطفال الطبقات الميسورة والمستقرّة ماديّا، وقد قام بتجربة طلب من خلالها من الأطفال التعليق على مجموعة من رسوم متحرّكة:

. فأنتج الذين ينتمون إلى أوساط فقيرة نصّا يكاد يخلو من الروابط والضمائر وكانت جملهم قصيرة **(يلعبون كرة القدم، يقذف الكرة، يكسّر الزجاج...)**

. أمّا الذين ينتمون إلى الأوساط الميسورة، فقد أنتجوا نصّا مستقلاّ: **(الأطفال يلعبون كرة القدم، هذا يقذف الكرة، والكرة تعبر النّافذة وتكسّر الزجاج...).**

يصل برنشتاين إلى أنّ التّعلّم والاندماج الاجتماعي مرتبط بالأسرة التي يترعرع فيها الأطفال وأنّ البيئة الاجتماعية تحدّد السلوكات اللغوية.

6 . ديل هايمز وأثنوغرافيا[1] التواصل (Ethnographie de la communication): تطوّر هذا الفرع (أي إثنواغرافيا التواصل) نتيجة تأثر بعض اللّسانيين الاجتماعيين أمثال هايمز وقومبرز (Dell Hymes et John Gumperz) بالدراسات الأنتربولوجيا اللّسانية عند ورف وسابير وبواز، وقد كشف إثنوغرافيا التواصل عن تنوّع الأداء اللّغوي وتنوّع الوظائف الاجتماعية للكلام، وكشف عن المعايير الاجتماعية والثقافية التي تضبطها. كما اهتم بوصف المدونة اللّغوية لأعضاء الجماعة، ووصف مميّزات الظروف التي يمكن للتّواصل أن يجري فيها.

وقد وضع هايمز نموذج التّواصل، واعتنى بوصف الممارسات اللّغوية والخطابية لمختلف المجموعات الثقافية والاجتماعية، بتركيزه على الوظائف أكثر من تركيزه على البنية، واعتبر المنطلق ليس هو السَّنَن اللّغوي، بل النّشاط الخطابي للمتكلّم، واشتغل على المحادثة (conversation) وعلى ما تنطوي عليه من التبادل في الأدوار يمكن ملاحظتها في الاستعمالات اليومية.

[1] ـ الإثنوغرافيا: فرع من الأنتروبولوجيا، يقوم بدراسة وصفية لأسلوب الحياة وللعادات وتقاليد الشعوب، وأنظمتها الاقتصادية، ولفنونها، وللمأثورات الشعبية لمجتمع معين، خلال فترة زمنية محددة. ويصف هذا العلم حضارة شعب معين برسم صورة دقيقة لطرائق معيشته ونظمه وعلاقاته الاجتماعية فهو يدرس المظاهر المادية للنشاط الإنساني من عادات وتقاليد كالمأكل والمشرب والملبس.
وترى
ـ إثنية: مجموعة بشرية تتميّز بالثقافة نفسها، وباللغة نفسها.

لقد استحدث هايمز مفهوم ((**الكفاية التواصلية**)) يبيّن من خلاله أنّ عملية التّواصل لا تكتفي بمعرفة القواعد اللّغوية إذا كان المتكلّم يجهل كيفية استعمال تلك القواعد في السّياقات الاجتماعية.

ويرى هايمز أنّ كلّ استعمال تبليغي للّغة أو لحدث كلامي يتكوّن من ثمانية عناصر بارزة يتصل كلّ منها بوظيفية تبليغية ما (على غرار ما فعل رومان جاكوبسن). لذا يقترح نموذجا للتّواصل البشري، حاول من خلاله أن يوحّد تلك العناصر الوظيفية والبنوية للتّواصل في كلمة واحدة وهي : "S.P.E.A.K.I.N.G" :

S - 1 : Setting (الموقف situation)، هو السّياق الزّماني والمكاني والنّفسي للتواصل.

P - 2 : Participants (المشاركون participants)، يتضمّن كلّ من الباث والمتلقي، وأيضا جميع المشاركين المعنيين بالموقف التواصلي، كالشاهدين للحدث التواصلي مثلا.

E - 3 : Ends (الغايات finalités)، فهي في الوقت نفسه: الأهداف المنتظرة من طرف الباث، والنتائج المتحصل عليها، (والمقاصد والنوايا).

A - 4 : Acts (الأفعال actes)، يتمثّل في شكل ومحتوى الرسالة.

K - 5 : Keys (الإيقاع ton)، أي الكيفية التي يُنجز بها الحدث الكلامي .

I - 6 : instrumentalities (الأدوات instruments)، وهو ما يوافق القناة والشفرة التي وقع عليها الاختيار، (قناة سمعية وبصرية).

N - 7 : Norms (المعايير normes)، وهي الأعراف الاجتماعية التي تسمح بإجراء التبادل والتفاعل.

G - 8 : Gender (النوع genre)، التي تحدّد الفئة التي ينتمي إليها شكل التواصل (وصف، سرد ...).

هذه هي العناصر التي ينبغي إبرازها أثناء تحليل النّشاط اللّغوي وتحليل فعل التّواصل، ثمّ توضيح الكيفية التي تؤثّر بها هذه العناصر على بعضها البعض، ممّا يسمح بتوضيح وظائف ظاهرة التواصل.

يعتمد اللّغويون الاجتماعيون المتخصّصون في التّراث الإثنوغرافي على تقنية مهمة تتمثّل في تسجيل الأحداث الكلامية الطّبيعية التي كانوا طرفا فيها. وقد يلجأ بعضهم، في تحليل سلوكات ومواقف معينة لإدراك التّغيرات اللّغوية، إلى تقنية الاستبيانات، وهي تقنية تتّمثل في تحضير لائحة أسئلة يجيب عنها مجموعة من أفراد، وتتمحور الأسئلة حول موضوعات تخص معتقدات ونفسيات وسلوكيات تخص جماعة لغوية معيّنة. وقد يلجأ البعض إلى إجراء مقابلات مع أفراد الجماعة المراد دراسة لغتها.

7 وليام لابوف والتغيرات اللغوية: إلاّ أنّ أعمال و. لابوف (William Lobov) المهمّة والأساسية فتحت أعين علماء اللّسانيين الاجتماعيين إلى إمكانية طرائق تحليلية "علمية"، وذلك من خلال أعمال ميدانية أنجزها بنفسه.

لقد كان (لابوف) يعلّق دائما على أعمال أنطوان ميّيه بخصوص ربطه التّغيرات اللغويّة بالتّحوّلات الاجتماعية (سنة 1921). فيقدّم لابوف أمثلة عن ذلك، منها، مثلا، التأثير الزّنجي على لهجة نيويورك فنولوجيّا، ويذهب في كتابه (اللسانيات الاجتماعية) إلى أنّ ((مثل هذه الأمثلة لتعطي وزنا لما كان **(ميبه) يصرّح به))**

وقد نشر لابوف سنة (1966) دراسة بعنوان ((التنضيد الاجتماعي في المحلاّت الكبرى لمدينة نيورك)). يؤكّد لابوف من خلال أعماله الميدانية عدم إمكانية فصل اللّغة عن المكوّن الاجتماعي، فأخذ يفسّر التغيّرات التي تطرأ على البنية اللغوية (الصوتية، المعجمية، النّحوية...) بالسياق الاجتماعي الذي يؤثّر حتما في البنية، وبالتالي لا يمكن، حسبه، الفصل بين اللسانيات واللسانيات الاجتماعية.

. لقد انتقد لابوف نظرية تشومسكي التي تنبني على فكرة المتكلّم المستمع المثاليين اللّذين لا وجود لهما في الواقع، ويرى أنّ اللغة ليست ظاهرة فردية وراثية عقلية، كما يعتقد تشومسكي، بل هي ظاهرة اجتماعية مكتسبة، ووسيلة اجتماعية في التواصل.

اعتمد لابوف في دراساته الميدانية، والتي يثبت من خلالها أنّ التغيرات اللغوية مرتبطة بالطبقة الاجتماعية، على شرائح اجتماعية مختلفة (أغنياء، فقراء، مثقفين، أميّين، تجّار، مهندسين ...)، واختار متاجر فخمة وأخرى متوسطة، واعتمد أيضا على المتاجر الشعبية، ليفسّر اختلاف سكان نيورك في استعمالهم للحرف (r) فيسأل كلّ زبون مستخدما المسجّل، كي يلاحظ كيفية نطق الحرف السابق، عند جميع الفئات، ثمّ يربط اختلاف نطق هذا الصوت باختلاف الطبقات، ويفسّر الأسباب.

. إلى جانب ما سبق، نجد اللساني الاجتماعي الأمريكي غوفمان(Goffman) يركز اهتماماته على تحليل المحادثة الحوارية، كون هذه الأخيرة تصوّر شكل التفاعل اللغوي تصويرا رائعا، يحلّل العلماء من خلال فرع تحليل المحادثات أفعال التواصل اليومي، وكيفية جريان الخطاب.